فائية جران العود ورائية عمر بن أبي ربيعة،

هل وقع الحافر أم سلخ الآخر؟

دراسة تحليلية مقابلة على ضوء نظرية التناص

الدكتور/الشيخ أحمد البان

كلية المجتمع في قطر

المستخلص

هذا البحث هو مقارنة نقدية بين نصين شعريين تراثيين لشاعرين اشتهر أحدهما وذاع صيته، وهو عمر بن أبي ربيعة، بينما بقي الآخر–وهو جران العود النميري– مطمورا لا تعرفه إلا ثلة من الباحثين، وتهدف هذه المقارنة إلى إثبات أن عمر بن أبي ربيعة كان مستحضرا استحضارا واعيا فائية جران العود التي احتذاها في قصيدته "أمن آل نعم".

ولا يقتصر البحث على هذا المنحى التوثيقي، وما استدعاه ذلك من توثيق أسبقية جران العود في الزمن لعمر بن أبي ربيعة، وإنما يحاول أيضا أن يقارن بين النصين جماليا، باعتبارهما نموذجين للقصة الشعرية المكتملة الأركان والشروط في شعرنا العربي، وهي الموضوع الذي اعتبر بعض النقاد المعاصرين أن عمر بن أبي ربيعة كان رائده، بينما يرى البحث أن عمر كان محتذيا في تصويره لمسار قصة ليلة ذي دوران التي تدور حولها قصيدته؛ كان محتذيا لنموذج القصة التي أبدعها جران العود النميري في فائية التي يتحدث فيها عن ليلة الشط.

الكلمات المفتاحية: جران العود النميري–عمر بن أبي ربيعة–ليلة ذي دوران–ليلة الشط–سلخ

Abstract

This research is a critical comparison of two traditional poetic texts by two poets. One of whom is Omar bin Abi Rabia who was well known. However, the other one - Giran Oud Numayri - remained known only among a few researchers. This comparison aims to prove that Omar bin Abi Rabiaa deliberately imitated Gran Oud in his poem "Amn Al Naem".

This research is not limited to the documenting aspect which proves the precedence of Gran Oud in time over Omar bin Abi Rabia, but it is also trying to compare the two texts aesthetically, as these are two examples of the complete poetic story in our Arabic poetry. A topic that some contemporary critics considered Umar ibn Abi Rabia as a pioneer in. However, the research sees that Umar was imitating in his depiction of the path of the story of "Layletou Thi Duran", which his poem is about, the model of the story that Gran Oud Numayri created in his poem in which he talks about "Layletou Shatt".

Key words: Giran Oud Numayri- Giran Oud Numayri- Layletou Thi Duran- Layletou Shatt-plagiarism

مقدمة

يروم هذا البحث إنصافَ جران العود النميري، والانتصاف له من أبي الخطاب الذي ابتزَّه كثيرا من المعاني والأساليب الشعرية في أذيع قصائده وأسيرها بين الناس؛ قصيدة ليلة (ذي دوران) التي مطلعها:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر[1]

فنسبت تلك المعاني إليه لمكانته وشهرته وحضوره الطاغي في معمعان الحركة الأدبية في عصره، وعد بسببها رائد القصة في الشعر العربي، إذ هي أطول قصيدة عربية –حسب المشهور– تناولت قصة مغامرة غرامية كاملة من أول خطوات العاشق المغامر نحو خدر معشوقته إلى لحظة الوداع المثقلة بالدموع وزفرات الشوق والحنين، وما بين تينك اللحظتين من مواقف ومشاعر وانفعالات.

بينما ظل جران العود النميري فاتق تلك المعاني ومفترع هاتيك الأساليب منسيا خلف جبال نجد وحياة أهلها البدوية، يذكر الناس فائيته التي نرى أن ابن أبي ربيعة كان يحاكيها في قصيدته السالفة، لكنهم لا يذكرون أو لا يجرؤون على القول إن ابن أبي ربيعة قلد أحدا في معاني الغزل ومغامرات الصبابة والغرام، ويظن من يغره تشابه البحر والروي أن فائية الفرزدق (عزفت بأعشاش وما كدت تعزف) أقرب إلى فائية جران العود، وهو وهم لا يقف على أي أساس نقدي ولا ذوقي، فهما قصيدتان لا تشتركان في شيء من المعاني الشعرية، ولكل وجهة هو موليها.

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، محمد محيي الدين عبد الحميد، ص 92، مطبعة السعادة ، الطبعة الثانية 1960

وفائية جران العود التي نرمي إليها بالحديث هي التي أسميها في هذا البحث قصيدة ليلة (الشط) ومطلعها:

ذكرت الصبا فانهلَّت العين تذرف وعاودك الشوق الذي كنت تعرف[1]

ولمقاربة هذه القضية سيسير البحث وفق المحاور الآتية:

1- بين التناص العارض والسلخ المقصود

2- أيهما كان الأول في الزمن؟

3- تشابه شخصيتي الشاعرين: جران الحضري أم عمر البدوي؟

4- أيهما سلخ الآخر؟

5- المقارنة بين القصيدتين

1- بين التناص العارض والسلخ المقصود

التناص و النصوصية والنص الغائب كلها مصطلحات تحاول ترجمة مفهوم (Intertextuality) (Intertextualite) الذي ألقت به الناقدة الفرنسية من أصل بلغاري جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) في ميدان الدراسات النقدية عام 1966 في مقالاتها عن السيميائية والتناص في مجلتي (Tel-Quel) و(Critique)[2]، وهو في معناه المبسط يعني أن يتضمن نص أدبي ما أفكارا أو ظلالا أو إيحاءات من نصوص أخرى سابقة، بحيث تندمج هذه الأفكار والظلال

1 - ديوان جران العود النميري، ص49، تحقيق كارين صادر، دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى 1999

2 . التناص نظريا وتطبيقيا لأحمد الزعبي، ص 11، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع 2000، الطبعة الثانية،

والإيحاءات مُشَكِّلَةً نصاً آخر، وهو مصطلح له مقابلات مقاربة في النقد العربي القديم مثل: الاقتباس والتضمين والإشارة.

وإذا كان رولان بارت حاول أن يهزأ ضمنيا من النقد التقليدي المسكون – حسب رأيه– بـ"تحقيق أسطورة بنوة النص" الذي قتل مؤلفه قبل ذلك، مؤكدا أن "الاقتباسات التي يتكون منها النص مجهولة المصدر، ولكنها مقروءة، فهي اقتباسات دون علامات تنصيص"[1]، إذا كان حاول ذلك فإن محاولاته لا تستطيع على المستوى العملي أن تنفي أن هناك بعضا من التداخل والتشابه بين النصوص يستحيل تأطيره في فضاء نظرية التناص كما يشرحها هو.

يقع إذن مستوى من التداخل الكثيف بين النصوص يلزمنا من الناحية المنهجية بتجاوز فرضية "النص الغائب" إلى ما يمكن أن نسميه "النص المُسْتَحْضَر"، أي النص الذي كان المؤلف يستحضر محاكاته بوعي لحظة إبداع نصه الجديد، وهنا ستسعفنا الاستعانة بالمصطلحات النقدية التي تطورت في فضاء ما عرف في تاريخنا النقدي بـ"السرقات".

هناك ثلاث مصطلحات تعبر عن مستويات حضور ألفاظ أو معاني نص ما في نص آخر، لكنها تفترض ضمنيا وعي الأخير بالأخذ عن سابقه، هي إذن تصلح لمقاربتنا هذه أكثر من المفاهيم الدائرة في فلك التناص التي لا تفترض وعي الأخير بالنصوص الحاضرة في إنتاجه وعيا مقصودا، تلك المصطلحات هي: (النسخ والسلخ والمسخ).

قال ابن الأثير: "... واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا، وكنت ألفت فيها كتابا، وقسمته ثلاثة أقسام: نسخا، وسلخا، ومسخا.

[1] . المصدر السابق ص 13

- أما النسخ فهو: أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه، مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب.
- وأما السلخ فهو: أخذ بعض المعنى, مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ.
- وأما المسخ فهو: إحالة المعنى إلى ما دونه، مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة"[1].

سنبعد كلا من مصطلحي: (النسخ والمسخ)، لأسباب موضوعية نقدية، بينما سنستصحب مصطلح (السلخ) في إطار مقارنتنا هذه بين القصيدتين موضوع البحث، باعتباره الأقرب إلى حالة التشابه الحاصلة بينهما.

ولكن قبل ذلك لا بد أن نأخذ قليلا في مبحث:

2- أيهما كان الأول في الزمن؟

لا جدال في الفترة التي عاش فيها أبو الخطاب المغيري المشَهَّرُ، فهو أذكَر في الناس من أن يختلف في عصره، "وهل يخفى القمر!"، فقد رويت تفاصيل حياته منذ ليلة ولادته إلى وفاته، وذائع بين كتاب التراجم والمؤرخين أنه ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعاش في الفترة التي بين 23 – 93 هـ، وأخباره مع الأمراء والخلفاء والعلماء والعامة مذكورة مشهورة.

أما صاحبنا جران العود النميري فقد ضاع تاريخه في جبال نجد، وسلك فيه القدماء والمعاصرون طرائق قددا، واضطربوا اضطرابا كبيرا في العصر الذي عاش

1 . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 222/3، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة.

فيه، فحسب بروكلمان "يقرر الأدباء العرب أنه من الجاهليين"[1]، ولا أعرف مستنده في ذلك، فأغلب ما اطلعت عليه من مصادر ترجمته تقول بإنه إسلامي، أما كرنكو فقد قال بأنه "من الأمويين وعاصر عبد الملك بن مروان"[2]، ولم أقف على ما يدل على معاصرته لعبد الملك بن مروان، ولا أعرف مستند كرنكو في ذلك.

إن أغلب المصادر التي اطلعت عليها –عكس ما ذهب إليه بروكلمان– تذهب إلى أنه شاعر إسلامي، ولكنها لا تحدد بدقة فترة شبيبته واكتهاله، مما جعل الظنون تكثر حول حقبة حياته وقدر عمره، ولعل هذا ما دفع ابن قتيبة إلى إغفال الحديث عن عصره مكتفيا بذكر لقبه وسبب إطلاقه عليه، قال: "إنّما سمّى (جران العود) لقوله لامرأتيه:

خذا حذارا يا حنّتى فإنّنى رأيت جران العود قد كاد يصلح"[3].

وقد سلك سبيله في ذلك ابن العديم الذي اختار –فيما يبدو– أن يخرج من هذا الاضطراب فجعله شاعرا عربيا فقط، دون أن أي تحديد آخر، قال: "جران العود شاعر من العرب، لقب بجران العود لقوله:

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح"4.

---

[1] – تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 116/1 تحقيق عبد الحليم النجارورمضان عبد التواب، دار المعارف 1977، الطبعة الخامسة.

[2] – تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 116/1، مصدر سابق

3 – الشعر والشعراء لابن قتيبة، 718/1، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية 1958

4 – بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق سهيل زكار، 10/4724، دار الفكر

وممن ذهبوا إلى أنه شاعر إسلامي ابن ماكولا قال: "أما جِرَان بكسر الجيم فهو جران العود، شاعر إسلامي، من بني عقيل"[1]، ومنهم السمعاني الذي نقلها عن الدارقطني، قال: " قال الدارقطني: جران العود شاعر إسلامي عقيلي"[2]، وقال صاحب اللباب: "هو شاعر إسلامي"[3]، واستطرد ذلك ابن ناصر الدين وهو يضبط لقبا آخر له غير مشتهر به، وهو (أبو غَباب) مثبتا أنه بفتح الغين، قال: "قال: أَبُو غَبَاب، شَاعِر إسلامي.قلت: اسمه عامر بن الحارث الضبي، لقبه جران الْعود، مشهور"[4]، وسار على نهجهم ابن حجر وسماه المستورد، قال: "جِرَان، بكسر الجيم: هو جِرَان العَوْد، اسمه المستورد، شاعر إسلامي من بني عقيل"[5]، ولكنه اكتفى في نزهة الألباب بقوله عنه إنه شاعر قديم، وهي عبارة تنصرف عند إطلاقها غالبا إلى العصر الجاهلي أو أوائل العصر الإسلامي، قال: "جران العود بفتح العين المهملة هو المستورد العقيلي الشاعر، قديمٌ"[6].

---

1 – الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لابن ماكولا 69/2، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، الطبعة الثانية، وذكر أنه إسلامي أيضا في كتابه: تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام، ص167، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى1410.

2 – الأنساب للسمعاني 218/3، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية 1980

3 – اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري 269/3، مكتبة المثنى–بغداد

4 – توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق 150/6، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1993

5[555] – تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني، 248/1 تحقيق: محمد علي النجار، مراجعة: علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان

6 – نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر العسقلاني 169/1، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى 1409هـ–1989

هكذا تواطأ أصحاب الطبقات والتراجم على أنه شاعر إسلامي، ولم يقل أحد منهم بأنه جاهلي، وقد شاع لدى الدارسين المعاصرين أن البغدادي قال بأن جران العود شاعر جاهلي، وليس ذلك صحيحا فقد نص بأنه شاعر إسلامي، قال: ".. ومن شعر الإسلاميين ديوَان رَافع بن هريم الْيَرْبُوعي وديوان الْقطَامِي وديوان جران الْعود ..."[1].

والقول بجاهليته وهم أصاب شيخنا جواد علي حيث نسبه في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام[2] إلى البغدادي، وقد تابعه عليه شيخنا نوري حمودي القيسي في مقدمة تحقيقه لديوان جران العود الذي نشرته دار الرشيد 1982 ضمن منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية[3]، ولعل الأخير وثق بما جاء به جواد علي، ولم يرجع إلى خزانة البغدادي ليتحقق من نقله.

ورغم أن بروكلمان دفع القول المرجوح الذي نسبه للأدباء العرب في شأن جاهلية جران العود إلا أن حجته في الدفاع لم تكن ناهضة، حيث استغرب أن يذكر شاعر جاهلي بدوي مثل جران العود حمامة نوح في شعره[4]، وليس الأمر داعيا للاستغراب الشديد، فبعض أهل البادية كان متصلا بالمدينة، وكان موسم الحج وأسواق العرب ملتقى لبدويهم وحضريهم، ولا يستبعد أن يلتقط شاعر لماح بقريحته

[1] – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، 20/1 ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة 1418 هـ – 1997

[2] – المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي 55/18، دار الساقي، الطبعة: الرابعة 1422هـ/ 2001م

[3] – ديوان جران العود النميري، ص7، تحقيق نوري حمودي القيسي، دار الرشيد 1982

[4] – تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 116/1 تحقيق عبد الحليم النجارورمضان عبد التواب، دار المعارف 1977، الطبعة الخامسة

الذكية بعض ما يتناهى إلى مسمعه من تلك الأحاديث، وقد وردت قصة حمامة نوح مفصلة في شعر أمية بن أبي الصلت، قال في شأنها:

وأرسلت الحمامَة بعد سبع تدل على المهالك لا تهاب
تلمَّسُ هل ترى بالأرض عينا وغايته بها الماء العباب
فجاءت بعدما ركضت بقطف عليه الثَّأطُ والطين الكثاب
فلما فرَّشوا الآيات صاغوا لها طوقا كما عقد السخاب
إذا ماتت تورثه بنيها وَإن قتلت فليس له استلاب[1]

وقد حاول نوري حمودي القيسي –مثل بروكلمان– في تقديمه لتحقيق ديوان جران العود أن يستدل على إسلاميته من خلال بعض المفردات والمعاني الدينية الواردة في شعره، ولكن الشواهد جميعها التي جاء بها تصلح للاستئناس أكثر من كونها أدلة ناهضة، ذلك أن الثقافة الدينية كانت موجودة في جزيرة العرب بما يجعل الاقتباس منها لدى شاعر ذكي مثل جران العود ليس أمرا غريبا ولا مستبعدا.

هل أنا أسعى من خلال ما سبق لنفي إسلاميته؟ لا، أبدا. وإنما كنت أناقش ما أراه وهنا في الاستدلال على نفي جاهليته، فأنا مقتنع بنظرية التعمير التي أشار إليها نوري حمودي القيسي في تقديمه للديوان، وأنه عاش فترة من عمره في الجاهلية وعاش بقية عمره بعد ظهور الإسلام بالجزيرة العربية، وبقي حيا إلى عهد عبد الملك بن مروان، وبهذا يمكن الجمع بين الأقوال المتضاربة التي نثرناها في الفقرات السالفة، وبهذا يمكن تقدير طرفي عمره هكذا: 20 ق هـ –88هـ، أي أنه

[1] – شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ص21، تقديم وتعليق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت–لبنان

ولد قبل الهجرة بعشرين سنة وعاش بعد عبد الملك بن مروان سنتين، ذلك أنه ليس في العادة حسبان شخص من المعمرين دون أن يكون قد أناف على المائة ببضع سنين.

والحقيقة أن شعره يمثل نمط شعر النجديين في تلك المرحلة التي كانت فيها بوادي نجد قد تأثرت بالحياة الجديدة التي أنشأها الإسلام في الجزيرة العربية، ولكنها ما تزال تحتفظ بجزالتها وأصالتها وعفويتها البدوية الحالمة لقرب عهدها بالجاهلية.

من خلال ما سبق لا يبقى أمامنا شك في أن جران العود عاش ونضج شعره وذاع قبل سنة 35 هـ، أي قبل أن يطر شارب عمر بن أبي ربيعة ويبقل وجهه، وهو في هذه السنة ما يزال فتى يخطو في عامه الثاني عشر، وأن قصيدته التي يدرس هذا البحث أثرها الواضح في شعر عمر كانت قبل ذلك بعدد من السنين يسمح بترددها على ألسنة سكان مكة والمدينة وغيرهما من حواضر الإسلام التي كان عمر يعيش متنقلا بينها.

وفي مطلع قصيدته ما يدل على أنه كتبها بعد أن تقدم به العمر، وترك لهو الشباب ومغامرات الهوى، وذلك قوله:

ذكرت الصبا فانهلت العين تذرف وعاودك الشوق الذي كنت تعرف
وكان فؤادي قد صحا ثم هاجني حمائم ورق بالمدينة هتف[1]

1 – ديوان جران العود النميري، ص49، تحقيق كارين صادر، دار صادر–بيروت، الطبعة الأولى 1999

3- تشابه شخصية الشاعرين

تتشابه شخصيتا جران العود النميري وعمر بن أبي ربيعة ومسارا حياتهما وخصالهما النفسية تشابها يكاد يكون تطابقا، فكلا الرجسلين وسيط في قومه ينحدر من قبيلة مُعْرِقَةٍ في الشرف، وإذا كان نسب عمر بن أبي ربيعة أشهر من أن يذكر ، إذ هو في القُنَّةِ من بني مخزوم ثم من قريش، فإن جران العود لم يكن ابن بغي، بل من نمير بن عامر إحدى جمرات العرب التي لم تنطفئ ضعةً ولا مهانة[1]، وقد كانت "لهم كثرة وعزّة في الجاهلية والإسلام"[2]، وكانوا معروفين بالشجاعة والنجدة والخبرة في الطعان، وحسبهم يوم فيف الريح الذي سموا فيه (حُرَيْجَةَ الطِّعَانِ)، وسبب ذلك أنهم لما حمي وطيس المعركة اجتمعوا برماحهم فصاروا بمنزلة الحَرَجَة، وهي شجر مجتمع.[3].

كما أن لكليهما من الحسب والمال ما يكفل له حسن الذكر في مجالس فتيات العرب والتفرغ لحياة اللهو والطرب دون أن تزعجه مطالب العيش وتكاليف الأيام، وإذا كان غنى وترف عمر مشهور منقول بالتواتر الذي لا يقبل الشك فإن جران العود على النقيض من ذلك، فلا خبر يسعفنا عن حاله من الفقر والغنى سوى

---

1 . كان سبب خمول ذكرهم قصيدة جرير الدمّاغة التي هجاهم فيها، وأرسل فيهم بيته المشهور، وذلك حين قال مخاطبا شاعر ه الراعي النميري:

فغض الطرف إنك من نمير * *فلا كعبا بلغت ولا كلابا

2 . تاريخ ابن خلدون 371/2، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988

3 . الكامل في التاريخ لابن الأثير 501/1، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1997.

شعره، فشعره يدل بما فيه الكفاية على حيازته نصيبا غير يسير من الحسب والمال، أما الحسب فيدل عليه حديثه عن نفسه بشهرة ذكره بين النساء وتمنيهن له:

حمدت لنا حتى تمناك بعضنا وأنت امرؤ يعروك حمد فتعرف
رفيع العلا في كل شرق ومغرب وقولك ذاك الآبد المتلقف[1]

ولا يجرؤ على هذا القول الفاخر في تلك الفترة التي يرجح أن جران العود عاش فيها إلا من يعرف أنه مصدق غير مكذب فيما يقوله، خاصة أنه عاش فترة احتدمت فيها النقائض الشعرية النابشة عن كل سوءة، وكان ابن عمه الراعي النميري يهاجي جريرا، فليس من المعقول أن يفخر بالكذب في فترة مثل تلك، خاصة أن مطلع القصيدة يدل على أنه قالها بعد كبرته.

أما ماله فتدلنا عليه مواضع كثيرة من ديوانه، منها أبيات من قصيدته التي يهجو فيها زوجتيه، فهي تشير إلى أنه كان صاحب ثروة تالدة، يقول:

فإن الفتى المغرور يعطي تلاده ويعطي الثنا من ماله ثم يفضح[2]

فهو هنا يذكر (تلاد المال) وهو الموروث منه، ثم يمتن على زوجتيه وأهلهما بأن "حَكَّمَهُمْ" في ماله، ولا يمكن أن يمتن بذلك إلا إذا كان المال كثيرا وافرا، يقول:

فتلك التي حكمت في المال أهلها وما كل مبتاع من الناس يربح[3]

[1] – ديوان جران العود، ص55، كارين صادر.
[2] – ديوان جران العود. ص33، كارين صادر
[3] – المصدر نفسه، ص34

ثم إن في عرضه على زوجتيه أن يأخذا نصف ماله مقابل تركهما له وطلاقهما منه دليل آخر على كثرة ماله المشار إليه، فلو لم يكن النصف من ذلك المال وفيرا لما كان في عرضه عليهما أي قيمة ولا معنى:

خذا نصف مالي واتركا لي نصفه وبينا بذَمٍّ فالتَّعَزُّبُ أَرْوَحُ[1]

أما تشابههما في التفرغ لشأن النساء والحياة بينهن فيشهد به ديواناهما اللذان لا يحويان إلا شعر الغزل والنسيب، وزاد جران العود على ابن أبي ربيعة بهجاء المرأة.

ومن مظاهر التشابه بين شخصيتي الرجلين حرصهما في شعرهما على أن يظهرا مطلوبين للمرأة لا طالبين لها، وذلك ظاهر جلي في شعرهما، والقصيدتان اللتان نحن بصدد المقارنة بينهما تظهران ذلك، وإذا كانت ظاهرة افتخار الرجل بتعلق المرأة به بدأت مع امرئ القيس الكندي فإن الغوص في مشاعرها وتفصيل ذلك تطور معهما إلى مستوى جعلهما رمزين في هذا الفخر الغزلي اللطيف.

وهناك خصلة أخرى تجمع الرجلين وهي تجنبهما التكسب بشعرهما، فلم يؤثر عنهما اللهج بشعرهما ابتغاء نعمة ترجى عند خليفة أو أمير، فقد كان الشعر عندهما أكرم وأغلى من أن تستنزل بدائعه لغير الجميلات، ولو ثبتت قصة وفوده على عبد الملك بن مروان –رغم ما أثرته حولها فيما سبق– لا تخرم حكمنا عليه بتجنب التكسب بالشعر، فلم يرد أنه مدحه بشعر، ولا أنشده في حضرته .

ولا يمكن أن نغادر هذا المهيع قبل أن نذكر أن جران العود النميري وعمر بن أبي ربيعة كان يجمعهما أمر آخر ذو بال، وهو أنهما لم يكونا يدينا بمذهب التوحيد

[1] – المصدر نفسه، ص37

في الحب، بل كان صاحبي مغامرات غرامية، يبتغيان الجمال مظانه، يقيمان حيث ألفياه، ويرحلان ما عَنَّ لهما بارق وصال من حوراء خلوب.

وقد عرفتَ الآن مظاهر التشابه بين شخصيتي الرجلين، لا جرم أن سؤالا ألح عليك، هو:

3- أيهما سلخ شعر الآخر؟

أود أن أفجأك أيها القارئ الكريم بأن ابن أبي ربيعة هو الذي سلخ شعر جران العود، وأعرف أن هذا خلل منهجي، فالحكم ينبغي أن يأتي بعد البحث والتدقيق والمناقشة، ولكن –كما عرفت– فرضية هذا البحث هي تلك النتيجة.

عرفنا قبل قليل بما يشبه اليقين أن عمر بن أبي ربيعة متأخر في زمنه الحياتي عن جران العود، وأن زمنه الشعري أكثر تأخرا من ذلك، فقد رجحنا أن سنة ميلاد عمر (23هـ) كان فيها جران العود شاعرا ناضجا معروفا قد تجاوز الخمسين من عمره، لكن هذا لا يكفي لجعله متأثرا به في شعره، ولا سالخا لهذه القصيدة التي نحن بصدد مقارنتها مع قصيدة عمر، ولماذا لا يكون جران العود هو المتأثر بعمر في قصيدته؟ وما دام كلا الرجلين عاش بعيدا عن الآخر حيث عاش جران العود في بوادي نجد وعاش عمر في حواضر الإسلام، فلماذا إذن نطرح فرضية التأثير والتأثر بينهما؟

أما قضية التأثير والتأثر فلا تحتاج كثير بحث لأن المجتمع الإسلامي في العصر الأموي كان مهتما بالغزل وتداول أقاصيصه وأخباره، وقد أسهمت حركة الجمع والتدوين (تدوين اللغة بدأ مبكرا قبل ما اصطلح عليه لاحقا بعصر التدوين،

والذي يبدأ حسب الجابري من سنة 143هـ[1] في تنشيط هذا المجال، وأما ترجيح أن عمر كان هو المتأثر فتدل عليه قرينة أخرى وهي أن اتجاه النقل كان من البادية إلى المدينة وليس العكس ، بل كان كثير من الأعراب يرى في شعراء الحضر هجنة منافية للأصالة العربية، ولعل حرص ذي الرمة وأمثاله ورؤبة والعجاج ومن شأى شأوهم على الابتعاد عن المدن حتى لا يتأثر شعرهم بها أكبر دليل على ذلك.

تلك قرائن تاريخية واجتماعية، لكن هناك قرينة نصية هي في نظري أجدى في هذا الحجاج من بقية القرائن، تلك القرينة هي أن منزع تفصيل بعض المشاهد في قصيدة عمر بن أبي ربيعة –كما سنرى– وإيجازها في قصيدة جران العود، يدل على أن عمر كان منفعلا بقصيدة جران العود ومستحضرا لها، وكان أثناء قرضه يفصل المشاهد التي أبدع جران العود الحديث عنها بإيجاز.

4– المقارنة بين القصيدتين:

أ– التشابه في الإطار العام والجو النفسي للقصيدتين:

يتداخل الإطار العام والجو النفسي للقصيدتين تداخلا يكاد يصل حد التطابق، فكل واحدة من القصيدتين تتحدث عن مغامرة عاطفية، فقصيدة جران العود تتحدث عن مغامرته في ليلة "الشط" بينما تتحدث قصيدة عمر بن أبي ربيعة عن مغامرته العاطفية في ليلة "ذي دوران"، وكلا الشاعرين جاء متسللا إلى حبيبته، ولا يفترق كون جران العود لقي صواحبه خارج الحي وعمر لقي صاحبته في خبائها وسط الفريق، بل هو جو مكاني مناسب لطبيعة حياة كل واحد منهما، فمن الطبيعي أن يلتقي جران العود البدوي حبيبته بعيدا عن الحي، فدخول الغريب الحي ليلا خلسة غير مستساغ لدى الشاعر البدوي، ولا يطوف بخياله، وأما عمر

[1] – تكوين العقل العربي لمحمد عابد الجابري ص63، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية عشرة، بيروت 2014

المترف الناشئ في الحضر فخياله الشعري يطوف في التسلل إلى البيوتات واقتحام المنازل في غياب الرقباء.

ومن الجو النفسي المشترك في القصيدتين صورة الشاعرين فيهما، فقد ظهر كل واحد منهما في القصيدتين معشوقا وعاشقا، ومطلوبا وطالبا، وكلاهما باغته الفجر وخرج هاربا، وبقيت حبيبته تبحث عن مخرج مناسب من الورطة التي وقعت فيها.

ب-نماذج تفصيلية للتشابه بين القصيدتين:

1- الصيت الغزلي: أنا حديث الغواني

بدأ كل من الشاعرين مفتخرا بأنه ذائع الصيت لدى ربات الحجال، وأنه موضوع حديثهن إذا تهامسن في الحب والغزل والرجال، وتكاد ألفاظ ومعاني عمر بن أبي ربيعة في هذا الموضوع تطابق ألفاظ ومعاني جران العود، وهو تطابق عجيب ومريب، يقول جران العود ناقلا ما قالته محبوبته حين لقيها ذلك اللقاء العابر الذي ضربت له موعدا بعده:

وقالت لنا والعيس صُعْرٌ من البرى وأخفافها بالجندل الصم تقذف
وهن جنوح مصغيات كأنما براهن من جذب الأعنة علف
حمدت لنا حتى تمناك بعضنا وأنت امرؤ يعروك حمد فتعرف
رفيع العلا في كل شرق ومغرب وقولك ذاك الآبد المتلقف[1]

انظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة، وهو يصفهن ينعتنه وقد لمحنه من بعيد:

[1] - المصدر نفسه، ص55

بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان: أهذا المشهَّر؟
قفي فانظرى أسماء هل تعرفينه أهذا المغيري الذي كان يذكر
أهذا الذي أطريت نعتا فلم أكن وعيشك أنساه إلى يوم أقبر[1]

إنها المعاني ذاتها بل تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي جاء بها جران العود، أو ليست (أهذا المشهَّر)، هي ذاتها (يعروك حمد فتُعْرَفُ)، وهل (أهذا الذي أطريت نعتا) إلا ترجمة حرفية أمينة لقول جران (حمدت لنا حتى تمناك بعضنا)، إن عمر هنا لا يضيف شيئا سوى بعض الخلجات النفسية والتفاصيل المشهدية والحركة المسرحية والتلاحق القصصي، أما أصل الفكرة والمعنى واللغة فهو هو دون تبديل، وإذا كان هناك فرق فهو احتفاء صواحب جران العود بالثناء المعنوي (حمدت لنا حتى تمناك بعضنا)، واحتفاء صواحب عمر بن أبي ربيعة بالأوصاف الحسية (أطريت نعتا).

2- فنون ضرب مواعيد الغرام

تتقاطع القصيدتان في أن كل واحدة منهما تتحدث عن موعد غرامي ضربه الشاعر مع محبوبته، وكل واحد من الشاعرين يتحدث عن الموعد المضروب بما يلائم بيئته وطبيعة المجتمع الذي تعيش فيه فتاته المحبوبة، فجران العود شاعر بدوي يصرح بمكان الموعد ووقته، على طريقة أهل البادية في فطرية الأخلاق، ولا يعارض هذا حديثه عن القوادة واحتراف في انتقاء صفاتها التي يلزم أن تتوفر فيها، والذي اعتبر النقاد الأقدمون أن جران العود كان أبرع من ذكرها في شعره، يقول عن موعده:

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص93، مصدر سابق

فموعدك الشط الذي بين أهلنا وأهلك حتى نسمع الديك يهتف[1]

يتابع ابن أبي ربيعة في اقتفائه أثر قصيدة جران العود فيذكر موعد الزيارة الذي ضرب لمحبوبته كما سبق أن ذكر جران العود، ولكنه يأتي بذلك على طريقة أهل الحضر في الحيلة الذكية، ويخفيه حتى عن القارئ، ويلمح إليه لمحا لا يكاد يعرف:

ألكني إليها بالسلام فإنه يشهَّر إلمامي بها وينكَّر
بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكنانٍ: أهذا المشّهَّر[2]

"والآية: العلامة، جعل كلمتها هذه علامة لها لتعرف أن الرسول من قبله حقيقة"[3]، فذِكْرُ لقاء "مدفع أكنان" هو الشيفرة الخاصة التي ستعرف بها تلك الفتاة النابهة أن الرسول الذي يأتيها ليس مخادعا مدسوسا من ذويها يريد كشف علاقتها به، وقد حامت الشبه حولهما، وذلك ما يدل عليه قوله: (يشهَّر إلمامي بها وينكَّر)، وهو محاكاة لقول جران العود:

.... غير أنهم على كل ظنٍّ يحلفون ونحلف[4]

3- العتاب الودود

وهذا ملمح تشابه آخر، وهو ذلك العتاب الودود المنثور في أحناء القصيدتين، وهو عتاب مرغوب، ذلك أنه يدل على أن المرأة لم تمنعها العوائق من بذل الوصال، وأن الحب عندها انتصر على الواقع الذي يقف عقبة في الطريق.

---

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص56

[2] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 94، مصدر سابق

[3] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص 94، مصدر سابق

[4] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص57

وهو ملمح حرص الشاعران على إبرازه في قصيدتيهما، وعمر فيه تبع لجران، مع تميز كل واحد منهما بخصائص نفسية وخلقية تنسجم مع بيئته، فجران العود يأتي بعتاب يناسب البدويات اللواتي يبحثن عن اللطف ويشكين قسوة الرجل البدوي، وأعينهن طامحات نحو ما يسمعنه عن الرجل الحضري من لطف ودماثة، ولذلك تقول له:

وفيك إذا لاقيتنا عجرفيةٌ مرارا، وما نستيع من يتعجرف[1]

ثم لا تلبث أن تمدحه بما تحبه فيه، ولكنها تسوق مدحها مساق الذم حياء ودلالا، وهي في قرارة نفسها تعدها إحدى خصاله الحميدة، فالمرأة تهوى الرجل ذو العاطفة الجياشة والميل المجنون نحوها، ولو أغفل في سبيل ذلك ما يقتضيه إقناء حيائها، كما أنها تحب فيه أن لا يشبع من وصال ولا يمل من حديث، وأن لا يرضى بغير الجزل الفاخر من أعطيات الحسان، وقد عبر جران العود عن هذه النفسية تعبير جميلا كشف لنا بلغة جزلة فخمة ما يمور به قلب تلك البدوية من مشاعر عارمة:

تميل بك الدنيا ويغلبك الهوى كما مال خوَّار النقا المتقصِّفُ
ونلقى كأنا مغنمٌ قد حويته وترغبُ عن جزل العطاء وتسرف[2]

رأينا كيف كان أسلوب تلك البدوية في العتاب، وكيف عرض الشاعر البدوي مشاعرها وكلامها في قصيدته، وهو خطاب يناسبها، وتشبيهاته منتزعة من البيئة انتزاعا لائقا، فقولها : (ونلقى كأنا مغنمٌ قد حويته) يناسب خيال تلك الأعرابية التي

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص56

[2] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص56

تعيش بعيدا عن الدولة الضابطة، ويسرح خيالها في ما تسمعه غدوا وعشيا من أقاصيص الغارات الهوجاء التي تشنها القبائل بعضها على بعض.

أما عمر بن أبي ربيعة فيعرض لنا نموذج امرأة متحضرة محترفة متمرسة على زورات الأحبة في جنح الظلام، فهي تتكلف الوله والذعر وإن كانت مطمئنة البال، "تولَّهَتْ" ومعناها: "تكلفت الوله وأظهرته، والوله –بفتح الواو واللام جميعا– الحزن، وذهاب العقل، والتحير من شدة الخوف"[1]، وفي حركاتها المتتالية التي يصفها؛ ردها التحية له بصوت بين الجهر والمخافتة، وعضها البنان إيغالا في إظهار الندم والحسرة، وقولها: (فضحتني، وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر)، ورفع مستوى العتاب إلى أن ما قام به يعتبر تهوينا لشأنها واحتقارا لها، كل ذلك يظهر فيه التمثيل المسرحي من فتاة حضرية متمرسة، ثم هي فتاة قد هذبت المدنية ذوقها فهي تنتقي كلمات عتابها بأناقة، (ألم تخف؟) وهو عتاب في أطوائه إشادة برجولته وتقحمه الأخطار لأجلها، وتسمي أهلها أعداءه واضعة نفسها معه في ذات الخندق، فلم تقل (أهلي) وإنما قالت (عدوك)، فهو المركز الذي تدور حوله مواقفها وعواطفها، وتتحرج من أن تجرح مشاعر حبيبها فتأتي بجملة دعاء معترضة أثناء هذا العتاب الودود (وقيتَ).

فحييت إذا فاجأتها فتولهَتْ وكادت بمخفوض التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أجِدَّك قد هنا عليك ألم تخف –وقيتَ– وحولى من عدوك حُضَّرُ[2]

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة لمحمد محيي الدين عبد الحميد، ص97

[2] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص96

4- الطريق إلى المحبوبة

اشتركت القصيدتان أيضا في وصف الطريق إلى المحبوبة، وتطابقتا في تفاصيل لا يمكن أن تأتي عرضا، فجران العود يصف نفسه وهو يمشي متخفيا بعد أن علاه الليل أي أظلم المكان من حوله:

فلما علانا الليل أقبلت خفية لموعدها، أعلو الإكام وأظلف[1]

وابن أبي ربيعة ينتظر أفول القمير الذي كان بازغا:

وغاب قمير كنت أهوى وروح رعيان ونوَّم سمر[2]

فالأول كان موعده في ليلة مظلمة، أما الثاني فقد فكان موعده في ليلة من ليالي أول الشهر، بدلالة أفوله وما زالت من الليل بقية، وبدلالة تصغيره له (قُمَيْر).

وكلاهما كان يمشي مائلا متعرجا في سيره مخافة أن يراه أحد فينكشف أمره، يقول جران العود:

فلما علانا الليل أقبلت خفية لموعدها، أعلو الإكام وأظلف
إذا الجانب الوحشي خفنا من الردى وجانبي الأدنى من الخوف أجنف
كأن النميري الذي يتبعنه بدارة رمح ظالع الرجل أحنف[3]

فهو يأتي هنا بلفظين يدلان على ميلان شخصه خوف الانكشاف، ويذكر الظلع الدال على هيئة مشيته التي كان يعتمد في ذلك الوقت، ويذكر أيضا في البيت الأول تعرجه في السير من خلال تقصده الآكام، وهي المعاني ذاتها التي جاء بها ابن أبي

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص58

[2] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص96

[3] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص58

ربيعة، ولكنه نظمها وذكرها في تسلسل قصصي أكثر نضجا، إلا أن هذا لا ينفي تأثره بجران العود في الحديث عن هذه المعاني، يقول:

وخُفِّضَ عني الصوت أقبلت مشية الـ حُباب، وشخصي خشية الحي أزور[1]

إلا أن هناك فرقا في طريقة السير إلى الموعد تمليها طبيعة المكان الذي سيتم فيه اللقاء، فابن أبي ربيعة يحاول التسلل إلى خباء محبوبته وسط حي أهلها، وجران العود ذاهب إلى (الشط)، ذلك المكان الذي ضربت له الموعد فيه قبل أيام، كما مر في أول البحث، ولذلك (يعلو الإكام) كي يرمي ببصره إلى أبعد مكان فيراهن قادمات أو يرينه من بعيد، وهو وصف في غاية الدقة لمن يعرف البادية التي لا معالم فيها، فالذي يبحث عن ضالته في البادية يتقصد اعتلاء الآكام لكي يرى ضالته من بعيد، أو لكي تراه إذا كان من يبحث عنه شخصا، وابن أبي ربيعة أيضا كان دقيقا فالذي يريد أن يتسلل إلى داخل الحي في الظلام يحتاج أن يقترب من الأرض قدر ما يستطيع (مشية الحباب) والحباب: الحية.

5- المخاطرة ثمن الوصال

وهذا ملمح تشابه آخر، بل هو دليل إدانة المخزومي بشعر النميري، الدليل الذي لا يقبل النقض. تحدث جران العود عن الخطر الذي يتهدده في تلك الليلة إن اكتشف أمره مع أولئك الفتيات، وجاء هذا المعنى على ألسنتهن في سياق غزلي مناسب، حيث أوردنه مستحثات له على انتهاب طيبات الأنس في تلك الليلة التي لا يُدْرَى مصيره بعدها، "فإنك مرجوم غدًا أو مُسَيَّفُ"، ويحتمل لفظ (مرجوم) هنا معنيين؛ أحدهما معنوي والآخر حسي، فهو إما أن ينجو من رجال الحي فيصبحون يتهمونه رجما بالغيب، دون أن يكون لهم دليل يقيني، وإما بمعنى مقتول رجْمًا،

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص96

أي: مقتول بالحجارة، والرجم معروف، وأما (مُسَيَّفٌ) فواضحة المعنى، أي مقتول بالسيف، قال جران العود:

وقلن تمتعْ ليلة اليأس هذه فإنك مرجوم غدًا أو مُسَيَّفُ[1]

ورواية الديوان "ليلة اليأس"[2]، وقد رواها المعري في رسالة الغفران "ليلة النأي"[3]، وتابعه عليها عبد الله الطيب ونقلها منه فيما يبدو[4]، ورواها المرزوقي في أماليه "ليلة الله"[5] ، ورواية المرزوقي أوضح معنى، وروايتا (النأي) و(اليأس) أوجه في المعنى الأدبي، وأكثر تناسبا مع جو الخوف والترقب الذي يجري فيه لقاؤهم تلك الليلة العجيبة، فكأنها ليلة لا يمكن أن تتكرر لحسنها من جهة وخطورتها من جهة أخرى، وهذا الجو النفسي الخائف المترقب والمولَّه المستمتع عبر عنه جران العود في البيت بعد الموالي:

فبتنا قعودا والقلوب كأنها قطًا شُرَّعُ الأشراك مما تَخَوَّفُ[6]

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص60

[2] – الديوان، ص20

[3] – رسالة الغفران، ص277، تحقيق عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة1977

[4] – المرشد إلى فهم أشعار العرب، 4/460، دار الآثار الإسلامية– وزارة الإعلام – الكويت الطبعة: الثانية 1989

[5] – أمالي المرزوقي، ص407، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1995

[6] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص60

هذه المخاطرة التي وصفها جران العود استعادها عمر بن أبي ربيعة في قصيدته، ولم يزد على أن حول قولهن في قصيدة جران العود إلى حوار حي بينه وبين محبوبته، كما غير توقيت إيرادها داخل النسق الزمني للأحداث، فبينما أورده جران العود –كما رأينا– في سياق تَخَوُّفٍ لخطر محتمل، وخاطر قفز إلى أذهان صواحبه وهن في ذروة الاستمتاع بليلتهن معه؛ أورده عمر بن أبي ربيعة في سياق متأخر، فجعله بعضا من الحوار الذي دار بينه وبين محبوبته حينما انتبها لانبلاج الفجر مؤذنا بفضيحتهما أمام الملأ:

فلما رأت من قد تنبه منهم وأيقاظهم، قالت: أشر كيف تأمر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأرا فيثأر[1]

هي المعاني ذاتها التي جاء بها جران العود، ولكن عمر كان أبرع في تحويلها إلى حوار أكثر حيوية وأعمق في رصد الخواطر النفسية، حيث تندهش المرأة للموقف وتبهت فلا تملك رأيا في أول أمرها، وتستعيذ بالرجل طالبة عنده خطة الخلاص من ورطة الموقف الذي وجدت نفسها فيه، وحيث يظهر الرجل موقف الشجاعة والاقتحام، (فقلت أباديهم) أي أظهر لهم وأخرج على مرأى ومسمع منهم، ويفعل الله ما يشاء، ولا ينقض تأخر السياق الذي أورد فيه ابن أبي ربيعة هذه المخاطرة ما ذكره قبل ذلك من التخوف الذي انتابها وقت دخوله خباءها، حيث قالت له:

أريتك إذ هنا عليك ألم تخف وقيتَ وحولي من عدوك حُضَّرُ[2]

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص99

[2] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص96

لم يفتني التخوف والقلق الذي في هذا البيت، ولكنه تخوف عارض، لم يركز ابن أبي ربيعة عليه، ولعله أصاب في ذلك من وجهة النظر الغزلية، فليس سياق اللحظة التي جاء فيها البيت مناسبا للتعمق في التعبير عن مشاعر الخوف.

6- السلطان والأمير

وهذا ملمح بلغ من الطرافة غايتها، فجران العود سلطان في نظر صواحبه، وابن أبي ربيعة أمير في حضرة محبوبته، وهذا يبين مدى استحضار ابن أبي ربيعة لقصيدة جران العود حينما كان ينظم قصيدته هذه، فإن هذا التواطؤ لا يمكن أن يقع عرضا دون قصد.

يقول جران العود على لسان صواحبه:

فلما التقينا قلن أمسى مُسَلَّطًا فلا يسرفنَّ الزائر المتلطِّفُ[1]

ويقول ابن أبي ربيعة:

فأنت أبا الخطاب غير مدافع علي أمير ما مكثت مُؤَمَّر[2]

وهما بيتان لهما المعنى ذاته، ولا يختلفان إلا في أن جران العود اختار لفظا يناسب جوه البدوي وهو (التسليط)، وابن أبي ربيعة اختار لفظا يناسب جو الحضر وهو (التأمير)، ومؤدى اللفظين واحد، وهو إعلان الاستسلام من قبل المرأة، وإلقائها الزمام للرجل كي يقود بقية الرحلة الغرامية الموصوفة.

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص60

[2] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص97

7- مخاوف بعد الواقعة

من المعاني التي اشترك فيها جران العود وابن أبي ربيعة أيضا في هاتين القصيدتين حديث النسوة عن مخاوفهن المستقبلية من أن ينكشف أمرهن لأهليهن فيفتضحن، وقد استفاض جران العود في وصف هذه الخواطر، حيث وصفهن لنا وهن تقلن متأسفات (يا ليت أننا تراب)، وتتمنين لو أن القيامة جاءت وخسفت الأرض بالجميع، ونسي الناس في ذهولها موقفهن هذا، وفي غمرة اليأس من النجاة تطوف بهن خواطر أخرى بها بصيص أمل للنجاة، وهو أمل تجلبه عقائدهن الإسلامية التي ترى أن مع العسرا يسرا، وهن تعبرن هنا بـ"الخير" عن لفظ "الشر" الذي لا يردن أن ينطقنه، فالبلاء في الثقافة الشعبية موكل بالمنطق، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل الحسن[1]، (فقد كان بعض الخير يدنو فيصرف)، يقول جران العود:

وما أبن حتى قلن يا ليت أننا تراب، وليت الأرض بالناس تخسف
فإن ننج من هذي ولم يعلموا بنا فقد كان بعض الخير يدنو فيصرف[2]

لم تكن الصورة الشعرية متناسقة في هذا السياق لدى عمر ابن ابن أبي ربيعة، فقد جاء على هذا المعنى، ولكن بطريقة متناثرة مشوشة، ولكنه مع ذلك كان – كعادته– أقدر على تحريك الصورة الشعرية من خلال الحوار الحي، وتقطيع الموقف النفسي إلى جزئيات تتناثر داخل إطار الصورة الكلية، قال في موضع:

فقالت: أتحقيقا لما قال كاشح علينا وتصديقا لما كان يؤثر[1]

[1] – مسند الإمام أحمد 41/448، تحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى2001.

[2] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص62

يتضح من هذا البيت أن الخوف الذي ينتاب تلك الفتاة لم يكن خوفا على ما جاءته تلك الليلة من مغامرة عاطفية، وإنما خوفا من افتضاح أمرها مع ذلك الفتى المخزومي، ويبدو من قولها: (وتصديقا لما كان يؤثر)، أنا ارتيابا كان يدور حديثه في الحي حول علاقتهما، ولكن عمر يقطع علينا هذا الحديث النفسي عن المخاوف بإدراج تفاصيل خطة الخروج من المأزق.

8- الخروج من المأزق

المتداول في كتب الأدب وأحاديث الأسمار هو خطة عمر ابن أبي ربيعة، ولذلك وجاهته لا ريب، فقد برع في وصف تلك الخطة، وأبدع في إدارة الحوار القصصي للاجتماع الطارئ الذي انعقد فجأة بينه وبين محبوبته وأختيها اللتين جاءتا تساعدانها في مأساتها الشاخصة، ولكن هذا لا ينفي بل يؤكد أنه كان متابعا لجران العود في جعل تلك الخطة محورا من محاور قصيدته الرائعة، يقول ابن أبي ربيعة:

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص99

أقص على أختي بدء حديثنا وما لي من أن تعلما متأخر
لعلهما أن تطلبا لك مخرجا وأن ترحبا سربا بما كنت أحصر
فقامت كئيبا ليس في وجهها دم من الحزن تذري عبرة تتحدر
فقامت إليها حرتان عليهما كساءان من خر دمقس وأخضر
فقالت لأختيها أعينا على فتى أتى زائرا والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر
فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفي ودرعي وهذا البرد إن كان يحذر
يقوم فيمشي بيننا متنكرا فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر[1]

ولعل من أسباب ذيوع خطة عمر بن أبي ربيعة الطريفة –إضافة إلى ما سبق– أنها جاءت في الوقت المناسب لها من وجهة النظر القصصية، فقد كانت آخر حديثه عن ليلته تلك، ولم يعقبها إلا حديثه عن ناقته وسيرها، وهو محور يخطر لي دائما أنه ملحق بالقصيدة وليس منها، فهو لا ينتمي إليها سياقا ولا لغة ولا جوا نفسيا، ولكن ذلك شجن آخر، ليس هو مجال حديثنا الآن، بينما جاءت خطة جران العود حديثا عارضا قبل وقتها المناسب، ولذلك يمر عليها القارئ دون أن تلفت انتباهه، لأنه لا يسبقها مشهد الفضيحة التي تكاد تحيط بالحبيبين مع انبلاج صادع الفجر، كما أنه لم يخرج فيها كثيرا عن ما تداوله الشعراء من لدن امرؤ القيس، يقول:

[1] – شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، مصدر سابق، ص99

فموعدك الشط الذي بين أهلنا وأهلك حتى نسمع الديك يهتف
وتكفيك آثارا لنا حيث نلتقي ذيول نعفيها بهن ومطرف
ومسحب ريط فوق ذاك ويمنة يسوق الحصى منها حواش ورفرف
فنصبح لم يشعر بنا غير أننا على كل ظن يحلفون ونحلف
وقالت لهم أم التي أدلجت بنا لهن على الإدلاج آنى وأضعف
فقد جعلت آمال بعض بناتنا من الظلم إلا ما وقى الله تكشف

إنها الخطة ذاتها، تلك الخطة المرسومة من قبل المرأة لخروج محبوبها من المأزق الذي سيدخل فيه نفسه لقاء وصالها، ولكن جران العود في الأبيات الثلاث الأولى يوردها سردا من طرف واحد، بينما يأتي بها ابن أبي ربيعة حوارا نابضا بالحياة، ولكن التفاته واستحضاره لتفاصيل ما ذكره جران العود لا يخفى على ناظر.

ومن الفروق الواضحة بين الموقفين أن خطة جران العود هي خطة استباقية تناقش تفاصيلها قبل دخول المغامرة، فمحبوبته تود أن تطمئنه على أنها قد وضعت الضمانات اللازمة لتجنيبه خطر المغامرة التي سيقدم عليها، بينما خطة عمر توضع على استعجال بعد الوقوع في المأزق فعليا.

لكن الشيء الذي برع فيه جران العود هو توظيفه للحوار في هذا المقطع ولتقنية (الاستباق) في وصفه للحديث المتوقع أن يدور ضحى الغد بين أهل الحي، الذين سيريبهم استغراق تلك الفتيات في نومة الصبح، تلك الريبة التي يلخصها الشاعر بأسلوب بالغ الإيحاء والدلالة على المراد (على كل ظن يحلفون ونحلف)، فليس هناك ما يمكن أن يشكل دليل إدانة صارمة، مع أنهن يخفين مسواكه، وكن حين أخذنه متخوفات:

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص56

ذهبن بمسواكي وقد قلن قولة سيوجد هذا عندكن ويعرف

وبينما الحي يرمون التهم جزافا على تلك الفتيات، وبينما قلوبهن في أجنحة الطير فَرَقًا ورهبة تنبري عجوز مدافعة عنهن، ويكون المشهد أكثر درامية وإثارة حين نعرف أن تلك العجوز أم للفتاة التي قادتهن البارحة فتسللن من بين بيوتات الحي نحو "الشط"، حيث ضربن موعدا غراميا لجران العود (وقالت لهم أم التي أدلجت بنا .....)، انبرت تلك العجوز تدافع عنهن، وتقول إنهن بعيدات عن ما يتهمن به، فهن (على الإدلاج آنى وأضعف)، وهذا شأن الأم التي تظن الحسنى دائما ببناتها، ولا تصدق ما يقال عنهن، وأمام دفاع تلك العجوز تقوى شكيمتهن فيدفعن عن أنفسهن قائلات: (وما لجران العود ذنب وما لنا .....).

خاتمة:

تلك سياحة أدبية تحاول المقارنة بين قصيدتين من عيون الشعر العربي، وتسعى إلى إنصاف جران العود النميري والانتصاف له من ابن أبي ربيعة التي ابتزه قصيدته، ولم أر من ذكر هذا الابتزاز، ولعل عوامل عدة أدت إلى هذا الإغفال للتشابه بين النصين، ومن تلك العوامل حجاب الروي والتباعد بين لغة البادية ولغة الحضر، والثقة العالية في غزل ابن أبي ربيعة، وقد بقيت ملامح تشابه عديدة، بين القصيدتين تركتها خشية أن يطول هذا البحث، وإلا فإن التمادي في هذا المهيع لذيذ مطرب.

وقبل أن أختم هذا البحث يطيب لي أن أذكر أن مما تفوق فيه جران العود في هذه القصيدة ولم يجر معه ابن أبي ربيعة في مضماره؛ تفصيله للصفات التي تستهوي المرأة في الرجل، وكأنه بذلك يضع خارطة طريق لأصحاب المغامرات العاطفية كي يستطيعوا من خلالها التسلل إلى قلوب ربات الحجال، وهو محور

طريف جدير بالدراسة، ويمكن أن تكون هذه الأبيات وما ذكره الشنفرى في لاميته؛ يمكن أن يكونا مادة رئيسة لبحث اجتماعي يناقش تغير الأذواق والقيم داخل المجتمع العربي البدوي خلال العصور، يقول جران العود واصفا الرجل الذي يستهيم الحسان:

ولن يستهيم الخُرَّدَ البيض كالدُّمى هدان ولا هلباجة الليل مقرف
ولا جبلٌ تِرْعِيَّةٌ أحبن النسا أغم القفا ضخم الهراوة أغضف
حليف لوطبي علبة بقرية عظيم سواد الشخص والعود أجوف
ولكن رفيق بالصِّبا متبطرقٌ خفيف ذفيف سابغ الذيل أهيف
قريب بعيد ساقطٌ متهافت فكل غيور ذو فتاة مكلف
فتى الحي والأضياف إن نزلوا به حذور الضحى تلعابة متغطرف
يرى الليل في حاجاتهن غنيمة إذا قام عنهن الهدان المزيف
يلم كإلمام القطامي بالقطا وأسرع منه لمة حين يخطف[1]

أما بعد، أيها النميري البارع

لقد حاولت أن أبعثك من جديد، وأن أعطيك حقك من الذكر بعدما كدت تطوى وتنسى في أضابير الكتب، وقد ركبت الصعب كي أنتصف لك من المخزومي الذي ابتزك آبدات المعاني الشعرية، ولم يجد على مر السنين من يقول له: هذا المعنى ليس لك، فقد كان سيد الغزلين، وكان فاطرَ مذهب جديد في الحديث عن الحب والجمال اللذين كان مفتونا بهما، وقد كان محميا بالنسب الباذخ في قريش صاحبة السلطة الدينية والدنيوية، وكان –وهذه أقوى وأحصن– محميا بقلوب الحسان اللواتي عرف كيف يخلبهن عقولهن بالكلم الجميل.

[1] – ديوان جران العود، كارين صادر، مصدر سابق، ص64

مراجع البحث

1. شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، الطبعة الثانية 1960
2. ديوان جران العود النميري، تحقيق كارين صادر، دار صادر–بيروت، الطبعة الأولى 1999
3. التناص نظريا وتطبيقيا لأحمد الزعبي، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية: 2000
4. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: 637هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة.
5. تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، تحقيق عبد الحليم النجارورمضان عبد التواب، دار المعارف 1977، الطبعة الخامسة.
6. الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية 1958
7. بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق سهيل زكار، 10/4724، دار الفكر
8. الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لابن ماكولا، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، الطبعة الثانية، وذكر أنه إسلامي أيضا في كتابه: تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام، ص167، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى1410.
9. الأنساب للسمعاني، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية 1980
10. اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري، مكتبة المثنى–بغداد.

11.توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1993.

12.تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد علي النجار، مراجعة: علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

13.نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى 1409هـ-1989.

14.خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة 1418 هـ - 1997.

15.المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، دار الساقي، الطبعة: الرابعة 1422هـ/ 2001.

16.ديوان جران العود النميري، تحقيق نوري حمودي القيسي، دار الرشيد 1982.

17.تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، تحقيق عبد الحليم النجارورمضان عبد التواب، دار المعارف 1977، الطبعة الخامسة

18.شرح ديوان أمية بن أبي الصلت، تقديم وتعليق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان

19.تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988

20.الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1997.

21.تكوين العقل العربي لمحمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية عشرة، بيروت 2014

22.رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة1977

23. المرشد إلى فهم أشعار العرب، دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام – الكويت، الطبعة: الثانية 1989

24. أمالي المرزوقي، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1995

25. مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى2001.